الآليات الحجاجية وعلاقتها بالمعنى في الرسالة الجدية لابن زيدون

الدكتور/ عبداللطيف جعفر عبداللطيف الريح[1]

الملخص

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على تفاعل الآليات الحجاجية في الرسالة الجديّة، وإبراز علاقتها بالمعنى. اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي. توصل البحث إلى عدد من النتائج أهمها: ازدواج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع في معظم الحجج التي أوردها ابن زيدون في رسالته مع الاستعانة بالآليات الحجاجيّة المختلفة، بلاغية ولغوية وتداولية، تنوّع الروابط الحجاجيّة في الرسالة الجدية، إسهام الضمائر بأنواعها المختلفة في تماسك الحجج التي وردت في الرسالة، كانَ لأسلوب الشرط دورٌ واضحٌ في الربط بين قضيتين ليتحقق بذلك الإقناع ، لَعِبَ أسلوبُ القصرِ في الرسالةِ عن طريق النفي وأداة الاستثناء (إلا) دوراً واضحاً في تقييد الحجة بالنتيجة.أوصي الباحثين بالإفادة من رسالة ابن زيدون الجديّة عند دراسة الموضوعات ذات الصلة بالحجاج وآلياته.

Abstract

This research aims to identify the argumentative mechanisms of the significant serious vocation messages, and state their semantic relation. The researcher adopted the descriptive analytical method. The research concluded to many results, the most important of which were: The duality of the convincing styles with the styles of entertaining in the most of the argumentative mentioned in Ibn Zaydown vocation messages supported with different argumentative mechanisms rhetorical and linguistically. The variety of cohesion argumentative. The contribution of different types of pronouns to the coherence of the arguments. The conditional style had a clear role in linking two issues to achieve that persuasion. The style of omission has a clear role in the restriction and limiting the argumentative. The researcher recommended to study Ibn Zaydown significant serious vocation message when, studying topics related to argumentative mechanisms.

(١) أستاذ مشارك – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة الملك فيصل – الإحساء – المملكة العربية السعودية.

مقدمـــة

الحمد لله ربَّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعينَ، وبعد، فالرسالة الجدية لابن زيدون –التي أجمع القدماء والمحدثون على أنّها تُعد في طليعة الرسائل الأدبية في تاريخ الأدب العربي– تمثلُ مظهراً من مظاهر الحجاج الذي يرتبط بالخطاب، ويسعى إلى التأثير في المتلقي وإقناعه؛ ولتحقيق هذا القصداستخدمَ فيها ابن زيدون عدداً من الآليات الحجاجيِّة الإقناعية، ومن هنا ظَهرَتْ مشكلة هذا البحث وبرزت أهميته.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الوقوف على تفاعل الآليات الحجاجية في الرسالة الجديّة لابن زيدون، وإبراز علاقتها بالمعنى.

منهج البحث وحدوده:

سيتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي؛ ولطول الرسالة الجدية سيقتصر البحث على القسم الأول منها الذي يمثلُ الجانب النثري، ويترك القسم الثاني الذي يمثل الجانب الشعري.

محاور البحث:

أ– التعريف بابن زيدون ورسالته.

ب– مفهوم الخطاب الحجاجي لغة واصطلاحاً.

ج– أنواع الحجاج.

د– الحجاج والتداولية.

هـ– الآليات الحجاجيّة في الرسالة الجديّة.

الدراسات السابقة:

١- أساليب الخطاب والإقناع في نثر ابن زيدون، للباحثة لدية عزيز، رسالة ماجستير، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا،٢٠١٢.

٢- آليات الحجاج في كتاب وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي، الباحثة الضاوية مخلوفي، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح،٢٠١٦.

التعريف بابن زيدون ورسالته:

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي (١٠٠٣-١٠٧١م)، من أشهر أدباء الأندلس الذين برعوا في الشعر والنثر معاً، عُرِفتْ كتاباته بقوةِ العاطفة وجزالةِ المنطق، ووُصِفتْ بالجودةِ والبلاغةِ، مما جعلَ رسائله تُعدُ من عيونِ الأدبِ[(١)].

وهذا ما كانتْ عليه الرسالة الجدية – ميدان بحثنا هذا- التي كتبها إلى أبي حزم بن جهور، الذي حكم قرطبة بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس؛ ليطلقَ سراحه من السجن الذي أوْدعه فيه نتيجةً لإحدى الدسائسِ، وكان ابن زيدون وزيراً له قبل سجنه[(٢)]؛ ولذلك فقد سعى ابن زيدون في رسالته إلى استعطاف الأمير والتأثير فيه بواسطة اللغة والخطاب، مستعيناً بآليات الحجاج المختلفة.

مفهوم الخطاب الحجاجي لغة واصطلاحاً:

الحِجَاج لغةُ:

(الحِجاجُ) من الجذر (حجج)، وقد جاء بمعنى القصد، و الجدل، والتخاصم، والغلبة بالحجج ، والدليل والبرهان في مختلف المعاجم[(٣)]، قال الأزهري:" الحُجَّة

(١) ينظر، عزيز لدية، أساليب الخطاب والإقناع في نثر ابن زيدون، رسالة ماجستير، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا،٢٠١٢، ص١٨. وتنظر ترجمة ابن زيدون في أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (المتوفى: ٥٤٢هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة /إحسان عباس /الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ، ص٣٣٦. والصفدي، تمام المتون ص ٧-٢٠.

(٢) ينظر، عبدالحليم حسين الهروط، ومحمود عبدالرحيم صالح، تحقيق الرسالة الجدية لابن زيدون، المجلة الأردنية في اللغة العربية، المجلد٣،العدد٢٠٠٧،٣، ص ١٩٠.

(٣) ينظر ابن منظور الأفريقي، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط٣، دار صادر بيروت،٢٠١٤، مادة (حجج)،ج/٢،ص/٢٢٦،والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط/١ مكتبة الشروق الدولية، مصر،٢٠٠٤،ص١٥٦.

الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة ... والتَّحاجُّ التَّخاصُم وجمع الحُجَّة حُجَجٌ وحجاجٌ ... وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً غلبه على حُجَّته ... واحْتَجَّ بالشيء اتخذه حُجَّة..."[1]، والحجة في اللغة تفيد الدليل، يقول الجرجاني:" الحجة: ما دُلَّ به على صحة الدعوى، وقيلَ: الحِجةُ والدليل واحد"[2].

الحِجَاج اصْطِلاحاً:

يعود اهتمام الدارسين بالحجاج إلى التراث اليوناني والعربي، وذلك في إطار الخطابة وفن الإقناع[3]، وعلى رأس هؤلاء أرسطو الذي اعتبر الحجاج" فن الإقناع، أو مجموع التقنيات التي تحمل المتلقي على الإقناع والإذعان"[4]، أي الاستعانة بالوسائل والأدوات التي تجعل الخطاب مقنعاً.

وفي التراث العربي تناوله الجاحظ الذي يُعد أهم من تناول الحجاج في تلك الفترة في إطار اهتمامه بالخطابة باعتبارها فناً يستهدف التأثير في المتلقي لإقناعه، وقد ظهرَ ذلكَ في اهتمامهِ بالخطيب وما يجبُ أن يتوافرَ فيهِ من شروطِ التأثير والإقناع من ملكاتٍ ذهنية، وصفاتٍ جسديةٍ، ومراعاة لأحوالِ المقام[5].

أمّا في العصرِ الحديث فقد كانَ لأفكار برلمان وتيتكا في إطارِ البلاغة الجديدة أثرٌ واضحٌ في انتشارِ مفهوم جديد لبلاغةالحجاج ترهن الفعل الحجاجي بالممارسة اللغوية البلاغية بعيداً عن الأثَر المنطقي الأرسطي، وانطلاقاً من ذلكَ يُعرَّف الحجاج بكونهِ دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أنْ تودي بالأذهان إلى التسليمِ بما

(١) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة) بنيته وأساليبه، ط/١ ،عالم الكتب الحديث، الأردن،٢٠٠٧ ،ص١٨.

(٢) ينظر الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر ،البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون،ط/٢ ،دار الجيل بيروت ،د/ت ،ج/١ ،ص/٩٢. و فطيمة الزهرة بابا عربي، حجاجية الصورة الشعرية في شعر أحمد عبدالكريم ،ص١٤.

(٣) ينظر فطيمة الزهرة بابا عربي، حجاجية الصورة الشعرية في شعر أحمد عبدالكريم ،ص٣.

(٤) طه عبدالرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط/٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،٢٠٠٦ ،ص٢٢٦.

(٥) ينظر السلمي عبدالرحمن بن رجاء الله الجامعي، بحث منشور بعنوان خطاب المحاور الحجاجي في التراث الأدبي، مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد١٧٩، ص٥٩٠.

يُعرض عليها من أطروحاتٍ أو تزيد في ذلك التسليم[١]. فالحجاج الحقيقي هو الذي وفقَ المحاجج إلى جعلِ درجةِ الإذعانِ تقوى عند السامع، بشكلٍ يبعثُ على تغييرِ السلوك نحو العمل المطلوب.

ويعرِّف طه عبدالرحمن الحجاج بأنَّه "كلُ منطوقٍ به موجَّه إلى غيرنا ؛لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"[٢]، وهو عملية اتصالية وفعالية تداولية جدلية[٣]، "تداولي؛ لأن طابعه الفكري مقامي اجتماعي...، وهو أيضاً جدلي؛ لأنَّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"[٤].

وقد أشارَ (أرسطو) إلى أهميّةِ الجدل والخطابة وحاجة المجتمع إليهما وذلك بقوله: "أن الناس جميعاً يشاركون بدرجاتٍ متفاوتة في كليهما؛ أي: (الجدل والخطابة)؛ لأنّهم جميعاً إلى حدٍّ ما يحاولون نقد قول أو تأييده، أو الدفاع عن أنفسهم، والشكوى من الآخرينَ"[٥]، وعلى هذا الاعتبار يكونُ قد اقترنَ في الحجاجِ قصدان، الأول قصدُالادعاء الذي اختصَ به المتكلم، والثاني قصدُ الاعتراض وهو من حقِّ المستمع، هذا بالإضافة إلى كونهِ يهدفُ إلى الإفهامِ والإبلاغِ والإقناعِ بوجهةِ النظر[٦].

ومما سبق يتضح لنا أنّ الحجاجَ خطابٌ إقناعيّ يأتي به صاحبه بهدف جعل المتلقي يقر بصحة مقولةٍ، أو قضيّةٍ معينةٍ، وعليه فالحجاج يهدف إلى التأثير في فكر المتلقي وحمله على تعديل رؤيته أو مواقفه، أو تعديل سلوكه بالاعتماد إلى عدة عمليات عقلية تعتمد على التفكير والمنطق من جهة، وعلى توظيف مهارات الخطاب

(١) محمد.
(٢) طه عبدالرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط/٤، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص٦٥.
(٣) أرسطو طاليس، الخطابة، ترجمة إبراهيم سلامة، ط/٢،مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة،١٩٥٣، ص٢٢.
(٤) ينظر السلمي عبدالرحمن، خطاب المحاور الحجاجي في التراث الأدبي، ص ٥٩٠.
(٥) ينظر خطاب المحاور ، ص٥٩٠.
(٦) ينظر المصدر نفسه، ص٥٩١.

اللُّغوية والبيانية من جهةٍ أخرى[١]، وكما هو معلوم أنّ لكلٍ من هذين النوعين نمط حجاجيّ خاص، الأول خطاب جدلي يقوم على المحاورة الجدلية، وهو أكثر ارتباطاً بالقضايا الفكرية والعقدية، و النوع الثاني حجاج خطابي، مجاله توجيه الآخرين والتأثير فيهم[٢].

أنواع الحجاج:

للحجاج مجموعةٌ من الأنواعِ أشارتْ إليها المؤلفاتُ ذاتُ الصلةِ، سأختصر الحديث هنا حول أكثر الأنواع تناولاً من حيث الدراسة، وقد حصرها طه عبدالرحمن[٣] في ثلاثة أنواع جاءتْ على النحو الآتي:

١. **الحجاج التجريدي:** ويقصد به "الإتيان بالدليل على دعوى عن طريق أهل البرهان علماً أنّ البرهان هو الاستدلال الذي يعنى بترتيب صورة العبارات بعضها على بعض بصرف النظر على مضامينها واستعمالاتها "[٤]، وقد بيَّن الدكتور طه عبدالرحمن أنَّ الحجةَ المجردةَ لا تمثلُ إلا مظهراً فقيراً من مظاهرِ الاستدلالِ في الخطابِ الطبيعي، وهي تنبني في الأصلِ على اعتبارِ الصورةِ وإلغاءِ المضمون والمقام[٥].

٢. **الحجاج التوجيهي:** وهو يعني "إقامة الدليل على الدعوى بالبناءِ على فعلِ التّوجيهِ الذي يختصُ بهِ المستدل، علماً أنّ التوجيه هو هنا إيصال المُستدِل حجته إلى غيرهِ"[٦]، وقد مثّل لهذا النوع بالأفعال اللغوية التي تفي بما يخص

(١) ينظر خطاب المحاور ، ص٥٩٠.
(٢) ينظر المصدر نفسه، ص٥٩١.
(٣) يُنظر طه عبدالرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٥٤-٢٧٢.
(٤) الضاوية مخلوفي، آليات الحجاج في كتاب وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح،٢٠١٦-٢٠١٧،ص٢٠.
(٥) ينظر طه عبدالرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٢٥٤، والضاوية مخلوفي، آليات الحجاج في كتاب وحي القلم. ص٢١.
(٦) المرجع السابق، ص٢٥٤.

المرسل من الاستدلال؛ لأنَّه لا يفترضُ حجج المرسل إليه[١]، وهي في الأصلِ تنبني على اعتبار فعل المُخاطَب وإلغاء رد فعل المُخاطِب[٢].

٣. **الحجاج التقويمي**: ويُقصد به " إثبات دعوى الاستناد إلى قدرة المستدل على أنْ يجردَ من نفسه ذاتاً ثابتةً ينزلها منزلة المعترض على دعواه "[٣].

والذي نلاحظه مما سبق أنّ النوعين الأول والثاني يكونان بين طرفين؛ المرسِل والمُرسَل إليه، أمَّا النوع الثالث فيكون بين المرسِل ذاته، وذلك عن طريق إقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه وذلك بالاعتراض على دعواه وإقامة الحجة على نفسه.

كما نلاحظ أنَّ هذه الأنواع الثلاثة بدأتْ متدرجة ابتداءً من الحجة التجريديّة التي تركز على الصورة والشكل، ثم الحجة التوجيهيّة التي تضيف إلى هذه الصورة المعنى والمضمون فمكَّنتها بذلك من تحقيق القصد من الحجاج، إلا أنّ هذا النوع من الحجاج يتوقف على المرسِل ويلغي دور المُتلقي مما يستدعي حجة التقويم التي تضع المُرسَل إليه في الحسبان عن طريق الحوار الذاتي القائم بين المرسِل ونفسِه بغرض درأ الشك المتوقع من المرسَل إليه[٤].

الحجاج والتداولية:

تُعد التداولية إحدى النظريات الحديثة التي نشأتْ عند الغربيين، وهي تقوم بدراسة اللُغة عند الاستعمال. وقد جاءتْ في معظم المعاجم بمعنى التبدل والتغيّر والتحوّل والانتقال من حالٍ إلى حال[٥].

(١) الضاوية مخلوفي، آليات الحجاج في كتاب وحي القلم،ص٢١.
(٢) ينظر طه عبدالرحمن،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،ص٢٥٤.
(٣) اللسان والميزان ، ص٢٥٤.
(٤) ينظر الضاوية مخلوفي، آليات الحجاج في كتاب وحي القلم،ص٢٠-٢١.
(٥) ينظر ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، ط/٢، دار الفكر بيروت،١٩٧٩،ج٢،ص٣١٤. وابن منظور الأفريقي، لسان العرب،ج١١،ص٢٥٢.

وتعني في اصطلاح الباحثين: دراسة اللُغة أثناء عمليّة التواصل؛ فيقتضي ذلك أن يُؤخذ في الاعتبار السياق وكل ما يتعلق بملابسات الخطاب[١]، وعليه وعلى الرغم من أنّ البلاغة تُعد مهد نظرية الحجاج، فإنّ التداولية هي الإطار العام الذي تسير فيه هذه النظرية؛ لذلك يرى (أوستين) و(سيرل) و(ديكرو) أنّ الحجاج مرتبط باللُغة؛ لأنَّ الخطابات الحجاجيّة عند (أوستين)تندرج في صميم نظرية الأفعال الكلامية وأغراضها التي تنتمي إلى بنية اللغة باعتبار أنّ الحجاج مرادف للفعل، فاللُغة إذن ذات بنية حجاجيّة إذ اقترنت بغرض التأثير، و(سيرول) تطرَّقَ للحجاج انطلاقاً من القصديّة، فنحن عندما نصدر حكماًما أو وعداً معيناً فهو يحمل بشكل إلزامي قصداً له تأثير على متلقيه[٢]، أما (ديكور) الذي يُعد من مؤسسي نظرية الحجاج بوصفها نظريةً لسانيةً تهتمُ بدراسةِ الوسائلِ اللغوية فهو ينطلق من مقولته الشهيرة:" إننا نتكلم بقصد التأثير"، وعليه فاللغة عنده تحمل وظيفة حجاجيّة[٣]. ونلاحظ فيما سبق أن جميعهم اتفقوا على أن الأفعال اللغوية تؤدي دوراً حجاجياً عندما تقترن بالتأثير؛ وعليه نستطيعُ القول إنَّ للحجاج علاقةً مباشرة بالتداولية.

الآليات الحجاجيّة في الرسالة الجديّة:

قام ابن زيدون بتوظيفِ إمكانياته الفنية والأدبية في صياغة رسالته الجدية التي كان غرضها التأثير فى الأمير وإقناعه؛ ليطلق سراحه من السجن، وقد استعانَ فيها بعددٍ من آليات الحجاج اللغوية، والبلاغية، والتداولية،التي توزَّعتْ على محاور هذه الرسالة، وهذا ما سنقوم ببيانه من خلال المحاور الآتية:

الاستغاثة بمولاه الأمير وإظهار الخضوع له:

بَدَأَ ابنُ زيدون رِسَالتَه مُخَاطِبَاً الأميرَ ابنَ جهور بلسان الاستغاثة والخضوع مستعيناً بعددٍ من الحجج التي وردت في قوله:" يا مولايَ وسيدي الذي ودادي له،

(١) ينظر فطيمة الزهرة بابا عربي، حجاجيّة الصورة الشعرية،ص٧.
(٢) ينظر الضاوية مخلوفي، آليات الحجاج في كتاب وحي القلم،ص٢٢-٢٦.
(٣) ينظر الضاوية مخلوفي ، ص٢٦-٢٧.

واعتمادي عليه، واعتدادي به ومَنْ أبقاه الله ماضي حد العزم واري زند الأمل ثابتُ عهد النعمة "[1].

النتيجة ⟵ استمالة الأمير وتهْيئته.

جاء ابن زيدون بهذه الحجج بغرضِ استمالة الأمير وتهْيئتهِ والتأثير فيه؛ ولهذا استعانَ بمختلفِ آلياتِ الحجاجِ التي بدأها في طرحه السابق بأداة النداء(يا) للفت نظر المخاطب وجعله يقبل عليه، وهي أداة لنداء البعيد، وقد ينادى بها القريب كما هو الحال هنا، وينادى بها الاسم المستغاث؛ ولذلك حسن استهلال ابن زيدون بها[2].

كما استعان بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)، وهو من الآليات الحجاجيّة التداوليّة الذي كان له وظيفة الجمع بين صفات المُستغاث (مولاي وسيِّدي)، وهما "كلمتان يكتب بهما من صغيرٍ إلى كبيرٍ بغرض التعظيم"[3]، وكان له وظيفة الجمع بين مكونات صلة الموصول (ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به)، أي: "ياملِيكي الذي بذلتُ حبي له، وقصدي إليه، وكنتُ معدوداً ومحترماً به"[4]، وكان له أيضاً وظيفة الجمع مع جملة الموصول وصلته، وهي قول ابن زيدون "ومَنْ أبقاه اللهُ مَاضي حَد العز موَاري زند الأَملِ ثَابتُ عَهْد النِّعمة"[5] التي اكتملت بها تهيئة الأمير واستمالته بلسان الاستغاثة والخضوع.

وإذا نظرنا في جملة صلة الموصول هذه، وجدنا فيها جانباً من الآليات البلاغية المتمثلة في التشبه الضمني، أي: أنَّ الأمير قوي العزم في نفاذ الأمور

(١) عليم، أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ط/١، مطبعة الشروق، أ،١٣٤٥-١٩٢٦،ص١٤.
(٢) ينظر المصدر السابق، ص٢٣.
(٣) عليم، أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون ، ص٢٣.
(٤) المصدر السابق، ص٢٤.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥.

كمضاءِ حد السيف في الضربةِ، سخي الكف في بذل المعروف لمن أمله ورجاه كالزند في خروج ناره عند الحاجة، عقيد النعمة كالثابت فيها، وهذا بلا شك يسهم في استمالة الأمير وتهْيئته.

إِظْهَار التَّمسك بمولاه للتأثير فِيه:

بَعد أَن نَادى ابنُ زيدون الأَمير بِلسانِ المُستغيث، أَظهرَ شِدَّة تَمسكه بِهِ بِغرضِ استمالته والتأثير فيه مستعيناً بتضافر الآليات الحجاجيّة اللغوية، والبلاغية، والتداولية، وذلك في قوله الذي جاء على النحو الآتي[1]:

النتيجة ⟵ إظهار التمسك بمولاه الأمير؛ لاستمالته.

بدأ هذا الطرح بـ(إذا) وهي أداة شرط غير جازمة، وتستعمل للمقطوع وقوعه، وهي للدلالة على ظرف زمان مستقبلي، وعند بعضهم ظرف مكان[2]، والشرط يُعد ركيزة الحجاج والأدلة العقلية في الخطاب؛ وذلك لأنّه يربط بين قضيتين[3]، وهذا ما فعله ابن زيدون في الربط بين قضيتين عند مخاطبته للأمير بقصد إظهار التمسك به والتأثير فيه، ومن ثم إقناعه، فجاء بجملة الشرط التي طرح فيها القضيّة الأولى وهي قوله: "إذا سلبتني أعزّك الله لباس إنعامك، وعطّلتني من حلي إيناسك، وأظمأتني إلى بَرود إسعافك وَنفضتَ بي كفّ حِيَاطَتك، وغضضتَ عنّي طَرْفَ حمايتك".

ولإبراز المعنى الذي أراده من هذه الجمل استعان بالعديد من الآليات البلاغيّة، نحو: الطباق بين السلب واللباس، والعطل والحلى، والظمأ والشراب، هذا بجانب الاستعارات البديعة، فقد جعل انعامَ مولاه عليه لباساً، وإيناسه بهِ حلياً،

(١) عليم، أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون،ص١٤.

(٢) ينظر ابن هشام الأنصاري ، جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، تحقيق مازن المبارك وآخرون،ط/١،بدون تاريخ،ص٩٢.

(٣) ينظر، الغرايبة، علاء الدين أحمد آليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي،ص٦٨.

وإغاثته وإنجاده برود اً، وحفظ حرمته كفاً صائلاً، واحتمائه به عيناً باصرة ، فلمّا حرَمَهُ منها صرفها إلى الضد، كأنّه يقول: "إذا أبدلتني من لباسك سلباً، ومن إيناسك وحشة، ومن شرابك ظمأ..."، ثمَّ جاء بالحجة عن طريقِ الربط الشرطي، وهي جملة جواب الشرط" فلا غروَ، قد يَغَصُّ بالماء شاربه ، ويقتل الدّواءُ المستشفيَ به، ويؤتى الحَذِرُ من مأمنه، وتكون مَنيّة المتمنّي في أمنيته، والحَيْنُ قد يسبق جُهْدَ الحريص"، وهي تحتوي على جملة من الحجج ربط بينها بـ(الواو) وهو من الآليات الحجاجيّة التداولية؛ وذلك ليظهرَ تمسّكه بمولاه ؛ ولذلك بدأ جواب الشرط بقوله:"لاغروِ"، أي: لا عجب فيما بدا منك؛ وذلك لأنَّ الشرَّ قدْ يأتي من طريقِ الخير، والدليل على ذلك أنَّ الماءَ الذي جعل الله منه كلَّ شيءٍ حيّ قد يقصُ الحلقَ، والدواء الذي يُقصد به الشفاء قد يكون سبباً في موتِ صاحبه، وأنَّ الحَذِر قد يأتيه المكروه من مكان أمنه، وقد يكونُ هلاك المتمني في أمنيتهِ، وأنَّ جهدَ الإنسان الحريص على الحياة قد لا ينجيه حرصه من الموت[1].

وفيما سبق يتضح لنا تمسك ابن زيدون بمولاه، بل يظهرُ لنا الغلو المفرط في التمسك بولاءِ مولاه واعتماده عليه بغرضِ التأثير فيه؛ وذلك عندما قامَ بتقوية الحجج في الطرح السابق بعددٍ من الحجج التي تحفل بالآليات التداولية وذلك بقوله: بَعد أن نظرَ الأعمى إلى تأميلي لك، وسَمِعَ الأصمّ ثنائي عليك، وأحسّ الجماد باستحمادي إليك [2] ثم استمرَّ ابنُ زيدون في سوقِ الحجج؛ لتقويةِ الطرحِ السابق.

حجج تقوية الطرح السابق ← بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك،وسمع الأصمّ ثنائي عليكو أحسّ الجماد باستحمادي إليك

ونلاحظ هنا المبالغة في سوق الحجج بغرض التأثير في مولاه؛ وذلك لأنَّ الأعمى لا يبصر، والأصم لا يسمع، والجماد لا يحس، وقد استخدمَ ابن زيدون

(١) ينظر، عليم أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون،ص٢٧.
(٢) ينظر، المصدر السابق، ص١٤.

الرابط الحجاجي (الواو)؛ للربط بين هذه الحجج، بالإضافة إلى الربط الاستدلالي في معاني حروف الجر (إلى، اللام، على، الباء).

إبعاد الريبة عن نفسه:

اتجه ابن زيدون إلى إبعاد الريبة عن نفسه بتحسن القبيح عن طريق الحجاج التقويمي مستعيناً بآليات الحجاج اللغويّة، والبلاغية، والتداولية التي أرادَ منها استمالة الأمير والتأثير فيه وذلك في قوله الذي جاء على النحو الآتي[1]:

النتيجة ⟵ استمالة الأمير والتأثير فيه.

بدأ ابن زيدون طرحه بالبيت الذي أخذه من قصيدة عبدالله بن محمد بن عيينة[2]؛ وذلك لبيان أنَّ أكثرَ المصائب التي تمر على الفتى تهون عليه غير شماتة حساده، ثم استعان بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)؛ ليربط المعنى السابق بقوله وإنِّي لأتجلدُ وأظهر للشامتين قوة عزيمتي على نوائب الدهر حتى لا يفرحوا ببليتي.

ثمَّ قامَ ابن زيدون بتحسين القبيح عن طريق الحجاج التقويمي مستعيناً بآليات الحجاج المختلفة التي بدأها بالآليات التداولية؛ وذلك باستخدام الرابط الحجاجي حرف العطف (الفاء)؛ لربط الحجج بالطرح السابق وذلك بقوله: "فأقول: هل أنا إلّا يدٌ أدماها سِوارها..."، هذا إلى جانب الآليات الحجاجية المختلفة التي سنوضحها بالوقوف على الحجج الآتية:

ح ١ ⟵ هل أنا إلّا يدٌ أدماها سِوارها.

وهذه الحجة من باب تحسين القبيح، استعانَ ابن زيدون في بنائها بتضافر الآليات الحجاجيّة التي من بينها التشبيه التمثيل، وهو من الآليات البلاغية التي

(١) عليم أبوبكر محمد، الدرالمخزون في شرح رسالة ابن زيدون ص ١٥.
(٢) المصدر السابق، ص٥٨.

صوَّرَ بها ابن زيدون اعتقاله في سجن ابن جَهور، والتضيق عليه باليد التي أدمَاها سوارها.كما استعان بالقصر الذي يعني: "تخصيص أمر بأمرً مخصوص، أو تخصيص أمر بآخر بطريقة مخصوصة"[1]، وكان ذلك عن طريق النفي وأداة الاستثناء (إلا) ؛ وذلك لتقييد الحجة بالنتيجة. ومن الآليات اللغوية التي أسهمت في تماسكِ هذه الحجة استخدام الضمير المتصل (الهاء)، وذلك بتحديدها ما تحيل إليه لدى المتلقي أثناء التواصل.

ح٢ ⟵ جبينٌ عضَّ به إكليله.

وهذه حجة أخرى من حجج تحسين القبيح، تضافرت فيها الآليات الحجاجيّة، منها تشبيه التمثيل وذلك بتشبيه اعتقاله في سجن الأمير والتضيق عليه بالتاج الذي عضّ بجبهة لابسه، وهنا نلاحظ أيضاًالاستعارة المكنية عندما شبه التاج بالكائن الحي الذي يعض، وحذف المشبه به وأتى بلازمة من لوازمه (العضّ)، والاستعارة من الآليات البلاغية. ومن الآليات التداولية التي أسهمت في بناء هذه الحجة الربط الاستدلالي بحرف الجر (الباء)، هذا بجانب الضمير (الهاء) الذي أسهم في تماسك هذه الحجة ؛ وذلك بتقييد الحجة بالنتيجة.

ح٣ ⟵ ومشرفيٌّ ألصقه بالأرض صاقله.

هذه الحجة معطوفة على الحجج السابقة بالرابط الحجاجي (الواو)، وهي كذلك من باب تحسين القبيح التي تضافرت فيها الآليات الحجاجيَّة المختلفة بجانب الرابط الحجاجي السابق، ومن هذه الآليات التشبيه التمثيل؛ وذلك عندما شبَّه ابنُ زيدون اعتقاله في السجن وتضييق الأمير عليه وإعراضه عنه بالسيف الذي ألصقه بالأرض صانعه ليس لإهانته، بل لتجويد صناعته،هذا بالإضافة إلى إسهام الضمير الهاء في (ألصقه) و(صاقله) في تماسك هذه الحجة بإعانة الربط الاستدلالي بحرف الجر (الباء).

(١) عبدالعزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،١٩٨٤، ص١٥٩.

ح٤ ⟵ وسمهريٌّ عرَضَه على النّار مثقّفه.

هذه الحجة معطوفة على الحجج السابقة بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)، هذا إلى جانب الآليات الحجاجيّة الأخرى التي من بينها تشبيه التمثيل الذي صوَّر فيه ابن زيدون حاله في السجن، والتضييق عليه بالرمح الذي عرَضَه على النارِ صانعه لتقويمه، كما أسهمَ الضمير الهاء في (عَرَضه) و(مثقّفه) في تماسك هذه الحجة مع الربطِ الاستدلالي بحرفِ الجر(على).

ح٥ ⟵ وعبدٌ ذهب به سيّده مذهب الذّي يقول:

فَقَسا ليَزْجره ومَن يكُ حازماً فليقْسُ أحياناً على مَنْ يرحمُ[(١)]

هذه الحجة شبيهة بالحجج السابقة، وهي أيضاً من حجج تحسين القبيح التي تضافرت فيها الآليات الحجاجيّة المختلفة بعد أن ربطها ابن زيدون مع الحجج السابقة بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)؛ ومن هذه الآليات التشبيه الذي صوّر به حال اعتقاله في السجن، وتضييق الأمير عليه بحال العبد الذي قسا عليه سيَّده بغرض تأديبه.

ومن الآليات الحجاجيّة التي وردت في بيت أبي تمام الذي استعان به ابن زيدون الرابط الحجاجي (لام التعليل) التي دخلت على الفعل المضارع (يَزجرُه) فجعلت ما بعدها علة لما قبلها؛ ولذلك وضَّحت أنّ القسوة كانتْ للتأديب؛ ولتأكيد هذا المعنى استعان بحجة أخرى عن طريق الربط الشرطي وذلك في قوله: (... ومَن يكُ حازماً فليقْسُ أحياناً على من يرحمُ).

الطرح ⟵ ومَن يكُ حازماً ⟵ فليقْسُ أحياناً على مَنْ يرحمُ

كما نلاحظ الآليات الحجاجية المتمثلة في الروابط الحجاجيّة (الواو، والفاء)، وفي الربط الاستدلالي في معنى حرف الجر(على).

(١) البيت لأبي تمام، ينظر، الخطيب التبريزي ، شرح ديوان أبي تمام، تحقيق راجي الأسمر، دارالكتاب العربي، بيروت،ط/١٩٩٨،٣،ج٢،ص٩١.

تأكيد إزالة الريبةعن نفسه:

واصل ابن زيدون في خطابه بتأكيد إزالة الريبة عن نفسه بجانب سعيه للتأثير في الأمير مستعيناً بتضافر الآليات الحجاجيّة المختلفة عن طريق الحجاج التقويمي؛ وذلك في قوله[1]:

النتيجة ⟵ تأكيد إزالة الريبة عن نفسه.

أشار ابن زيدون في هذا الطرح إلى غضب الأمير عليه بما أدّى إلى تأديبه، وأنّه سيعقبه الرضا عليه، وإلى الجفوة التي لحقته بأنّها شدة نزلت به وستزول عنه، كما أشار إلى النكبة التي أصابته أنّها سرعان ما تزول عنه مشبها إيّاها بسحابة الصيف في سرعة انقشاعها، ثم وضّح أنّه لن يشك في كرم مولاه ونفعه إن تأخرَ عنه لا عن بخل؛ ولتأكيد إزالة الريبة عن نفسه استعان ابن زيدون بعددٍ من الحجج التي تضافرت فيها آليات الحجاج المختلفة، وهذا ما سنوضّحه بالوقوف عندَ الحجج الآتية:

ح١ ⟵ فأبطأُ الدّلاء فيضاً أملاؤها.

هذه الحجة ربطها مع الطرح السابق بالرابط الحجاجي حرف (الفاء)؛ ليؤكد بها إزالة الريبة عن نفسه التي وردت في الطرح السابق الذي أثبت فيه إبطاء عفو الأمير والإفراج عنه، وأكد أنّ هذا الإبطاء سيعود عليه بالنفع بالآليات الحجاجية عن طريق التمثيل ببطء بالدّلاء عند إخراجها من البئر من شدة امتلائها بالماء.

ح٢ ⟵ وأثقلُ السّحاب مشياً أحفلُها .

هذه الحجة ربطها مع الحجة السابقة بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)، وهي من باب تأكيد إزالة الريبة عن نفسه ببيان أنّ هذا الإبطاء سيعود عليه

(١) أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ٨٢-٨٦.

بالنفع بتضافر الآليات الحجاجية التي من بينها التمثيل بصورة السّحاب الأكثر مطراً هو المتثاقل في مشيه، وهنا قد مدح البطء، والثقل وإن كان من لَوازِمَهما الذم.

ح٣ ← وأنفعُ الحَيا مَا صَادفَ جَدباً.

هذه الحجة من باب تأكيد إزالة الريبة عن نفسه التي استعان فيها ابن زيدون بالآليات الحجاجية، وقد بدأها بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)؛ ولبيان أنّ الإبطاء سيعود عليه بالنفع جاء بالتمثيل بصورة نفع المطر الذي يصادف الجفاف.

ح٤ ← وألذُّ الشّراب ما أصاب غليلاً.

هذه الحجة من الحجج السابقة التي أراد بها ابن زيدون إزالة الريبة عن نفسه، وقد بدأها بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)، ثم جاء بالتمثيل لتوضيح أنّ الإبطاء سيعود عليه بالنفع، وذلك عندما صوَّر النفع الذي سيأتيه بعد الإبطاء بلذة الشراب الذي يصادف العطش الشديد.

ح٥، ح٦، ح٧،ح٨،ح٩ ← ومع اليوم غدٌ، ولكلِ أجلٍ كتاب؛ له الحمد على اهتباله، ولا عتب عليه في إغفاله. فإن يكن الفعل الذي ساء واحد فأفعاله اللاتي سررن ألوف

ختمَ ابن زيدون محور إزالة الريبة عنَ نفسه بالحجج السابقة التي بيّن من خلالها أنّ يومه سيعقبه غده بسرور ورضى مولاه عنه، وأنّ ما أصابه هو مقدر منذ الأزل؛ ولذلك دعا لمولاه بأنّ له الحمد على اقتصاصه منه إن كان فيه رضاه، ونفى اللوم عن تغافل مولاه عنه إذا شمله رضاه، مبيناً أنّ إحسان مولاه عليه أكثر من إساءته له، وإن ساءه بفعل واحد، فقد سرّه بأفعال كثيرة، وقد أراد ابن زيدون من كل هذا استمالة الأمير والتأثير فيه مستعيناً بتضافر الآليات الحجاجية اللغوية والتداولية التي تمثلتْ في الروابط الحجاجية حرفي العطف (الواو، والفاء)، هذا بجانب الربط الاستدلالي لحروف الجر(مع، واللام ، وعلى، وفي).

كما كان لإسهام الضمير (الهاء) في (اهتباله، وعليه، وإغفاله، وأفعاله) أثرٌ في تماسك هذه الحجج التي ختمها بحجة مكونة من طرح . وحجته استعان فيها – من الآليات الحجاجية– بالربط الشرطي، وهي :

الطرح ⟵ فإن يكن الفعلُ الذّي ساء واحدا ⟵ فأفعاله اللاّتي سررنَألوفُ التقليل من حجم الذنب الذي كان سبباً في سجنه:

لجأ ابن زيدون إلى التقليل من حجم الذنب الذي كان سبباً في غضب الأمير عليه وسجنه، كما قام بنفي الذنب عن نفسه، وكان ذلك بذكر مجموعة من الحجج التي أراد منها استمالة الأمير واستعطافه، ثم إقناعه مستعيناً بتضافر الآليات الحجاجية المختلفة التي جاءت في قوله على النحو الآتي:

الطرح ⟵ " وأعود فأقول: ما هذا الذّنب الذّي لم يسَعه عفوك، والجهل الذّي لم يأتِ من ورائه حِلمُك، والتّطاول الذّي لم يستغرقه تطوّلك، والتّحامل الذّي لم يَفِ به احتمالك؛ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل! أو مسيئاً فأين الفضل!

إلاّ يكن ذنبٌ فعدلكَ واسعٌ أو كانَ لي ذنبٌ ففضلكَ أوسعُ

حنانيك! قد بلغ السّيل الزبى، ونالني ما حسبي به وكفى"(١)

الحجج ⟵ "وما أراني إلاّ لو أنّي أُمرتُ بالسّجود لآدمَ فأبيتُ واستكبرت، وقال لي نوح: ﴿ ارْكَبْ مَعَنا ﴾ فقلتُ: ﴿ سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي من الماءِ ﴾ ، وأُمرتُ ببناء صرح لعلّي أَطَّلِعُ إلى إله موسى، وعكفت على العجل، واعتَدَيْتُ في السّبت، وتعاطيتُ فعقرت، وشربتُ من النّهر الذّي ابتُلِيَ به جُيوشُ طالوت، وقدتُ الفيلَ لأبرهةَ، وعاهدتُ قريشاً على ما في الصّحيفة، وتأوّلتُ في بيْعة العقبة، ونفرتُ إلى العيْر ببدر، وانخزلتُ بثلث النَاس يوم أُحُد، وتخلفتُ عن صلاة العصر في بني قريظة، وجئتُ بالأفك على عائشةَ الصّدّيقة، وأنفتُ من إمارة أسامة، وزعمتُ أنّ بيعةَ أبي بكرٍ كانت فلتة، وروّيتُ رمحي من كتيبة خالد، ومزّقتُ الأديم الذّي باركت يدُ الله

(١) أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص٨٦.

عليه، وضحيّتُ بالأشمط الذّي عنوان السّجود به، وبَذَلْتُ لقطام:

ثلاثةَ آلاف وعبْداً وقَيْنَةً وضَرْبَ عليٍّ بالحسام المسمَّم

وكتبتُ إلى عمر بن سعد : أن جعجِع لحسين، وتمثلتُ عندما بلغني من وقعة الحرّة:

ليتَ أشياخي ببدرٍ علموا جَزَع الخزرجُ من وَقْع الأسَلْ

ورجمتُ الكعبةَ، وصلبتُ العائذ على الثّنيّة ـ لكان فيما جرى عليَّ ما يحتمل أن يُسمَّى نكالاً، ويدعى ولو على المجاز عقاباً.

وحسبك من حادثٍ بامرئٍ ترى حاسديه له راحمينا

النتيجة ← تقليل الذنب ونفيه عن نفسه.

بدأ ابن زيدون طرحه السابق – مستعيناً بالآليات الحجاجيّة– متسائلاً عن الذنبِ الذي ضاقَ عنه عفو الأمير، وهو استفهام إنكاري أرادَ به نفي الذنب الذي تضيق عنه ساحة عفو الأمير، كما قامَ بنفي الجهل الذي يستعصي على حلم الأمير، والذنب الذي تقصر قدرة مولاه على تجاوزه، موضحاً له أنّه لم يحملْه ما ينو بحلْمه حمله، راجياً منه عدله إن كان بريئاً، وفضله إن كان مسيئاً، طالباً منه حنانه موضحاً له أنّه قد بالغَ في عقوبته وجاوز الحد مع قلة ذنبه الذي أكّدَ قلته بعدد من الحجج التي تضافرت فيها الآليات الحجاجية ، التي بدأها بـ(لو) في الحجة الأولى:"وما أراني إلّا لو أنّي أُمرتُ بالسّجود لآدمَ فأبيتُ واستكبرت" وهو حرف امتناع لامتناع غيره، وإنَّما أراد بهذه الحجة وما جاء بعدها من الحجج التي احتوت على الأمور الموجبة لارتكاب المآثم والخِذْلان أنّه لو وقع فيما وقع فيه أولئك المخالفون لكان جرمه وعقابه حقاً[1].

ويظهر من سوق هذه الحجج متتالية بقوله:"... أبيتُ واستكبرتُ، وقلتُ...،وأمرتُ...، وعكفتُ...واعتديتُ...، وتعاطيتُ...، وشرِبْتُ...، وقدْتُ..."

(١) ينظر، أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون ، ص١٠٠.

إلى غيرِ ذلكَ من الحججِ التي أسهمَ فيها من الآلياتِ الحجاجية الربط بحرف العطف (الواو) بالإضافيةِ إلى ضميرِ المتكلم (التاء) وذلك بعد المبالغة في استعطاف مولاه؛ حمله على استصغار جرْمه بالقياسِ إليها، فكيف عن التمادي في عقوبته.

وابن زيدون أرادَ بهذه الحجج أنَّ مولاه لو نَظَرَ بحقٍ وعدلٍ لعَلِمَ أنّ ذنبه لا يماثلُ واحدة من تلك الجرائم مع أنّ العقوبةَ تحتمل أن تكونَ نكالاً عن أيّ واحدة منها، فاستعانَ من الآليات البلاغية بالمجاز المشبه بالحقيقة ؛ لأنَّ الحقيقةَ هي الأصل في الدلالةِ على المعنى المشبه بها[1].

ثم ختمَ ابنُ زيدون هذه الحجج بالمبالغة في وصف حاله السيء؛ وذلك بعد أن بيّن لمولاه أنّه لو أذنب كل هذه الذنوب وفيها الصغائر والكبائر لكان ما وصله من عذاب السجن وهو أنَّه ما يتوهم متوهمٌ أنّه انتقام منه ليعتبر غيره به ، أو لجازَ أن يكون جزاءً على حادثٍ ، والحال أنّه لم يقترفْ شيئاً، ثم وضَّح لمولاه أنَّ ما هو فيه حيّرَ حاسديه الذين كانوا يتمنون له البلاء لقربهِ منه فقد أصبحوا مشفقين عليه راحمين له[2]؛ لحض مولاه على الشفقة والرحمة وطلب العفو عنه؛ وذلك عن طريق الحجج التي تضافرت فيها الآليات الحجاجيّة المتمثلة في الربط بحرف العطف (الواو)، والربط الاستدلالي لحروف الجر (في، وعلى، والباء، واللام)، هذا إلى جانب الضمائر (الكاف) في (حسبك)، و(الهاء) في (حاسديه)، و(نا) في (راحمينا)،التي أسهمتْ في تماسك هذه الحجج التي جاءت جوابا لـ(لو) في قوله: "لكان فيما جرى عليَّ ما يحتمل أن يُسمَّى نكالاً، ويدعى ولو على المجاز عقاباً.

وحسبك من حادثٍ بامرئٍ ترى حاسديه له راحمينا[3]

(١) ينظر،المصدر السابق ، ص١٠٠.
(٢) ينظر ، المصدر نفسهص٢٥٠.
(٣) أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون ، ص ٢٥٠.

نفي الذَنْبِّ عن نفسه ووصف مَن جَاءَ بهِ:

استمرَ ابن زيدون في استمالة الأمير بنفي الذنب عن نفسه بتصنيف ذنبِّه ووصف من جاء به متبعاً في ذلك أسلوب القصر بـ(لا وإلا) الذي يُعد من الآليات الحجاجيّة الفاعلة؛ وذلك لحصره فاعلية الحجاج في وجهة حجاجيّة واحدة، وإضافته إلى الكلام قوة حجاجية تزيد من طاقته في توجيهه[1] وقد وردَ ذلك في قوله: "فكيف ولا ذنبَ إلّا نميمةٌ أهداها كاشح، ونبأٌ جاءَ به فاسقٌ، وهم الهمّازون المّشاؤون بنميم، والواشون الذّين لا يلبثون أن يصدَعوا العصا، والغواة الذّين لا يتركون أديماً صحيحاً، والسُّعاة الذّين ذكرهم الأحنف بن قيس، فقال: ما ظنُّك بقوم الصّدق محمودٌ إلّا منهم!

حلفت فلم اترك لنفسك ريبةً وليسَ وراء الله للمرء مذهبُ [2]

الطرح ⟵ فكيف ولا ذنبَ.

الحجج عن طرق أسلوب القصر ⟵ إلّا نميمةٌ أهداها كاشح، ونبأٌ جاء به فاسق، وهم الهمّازون المّشاؤون بنميم، والواشون الذّين لا يلبثون أن يصدَعوا العصا، والغواة الذّين لا يتركون أديماً صحيحاً، والسُّعاة الذّين ذكرهم الأحنف بن قيس، فقال: ما ظنُّك بقوم الصّدق محمودٌ إلّا منهم!

النتيجة ⟵ استمالة الأمير بنفي الذَنْبِّ عن نفسه ووصف من جاء به.

فالأسلوب في قوله: "**لا ذنبَ إلّا نميمةٌ** أهداها كاشح، ونبأٌ جاء به فاسق..." هو أسلوب قصر عن طريق النفي والاستثناء، فقد قصرَ ابنُ زيدون ذنبه على وشاية العدو، وخبر الفاسقين، والغرض من الحصرِ هو نفي الذنب عن نفسه، ويترتب على ذلك أنَ أسلوب الحصر قد انتقل بالتعبير إلى الطابع الحجاجي؛ وذلكَ بتوجيهِ الخطاب نحو نتيجة محددة، وقد استعانَ ابن زيدون إلى جانبِ ذلكَ بالربطِ بحرفِ

(١) ينظر، علاء الدين أحمد الغرايبة، آليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي ،ص٧٣.

(٢) أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص٢٥٠.

العطف (الواو)، والربط الاستدلالي لحرفِ الجر الباء في (بهِ)، هذا مع إسهامِ الضمير الهاء في (أهداها) و (به) في تماسكِ هذه الحجج، ولتقوية حجج نفي الذنبَ عن نفسه وصفَ مّنْ كان سبباً في ذنبه بأنّهم أهل الضلال والنفاق، وأنّ همهم تمزيق الأعراض، وإثارة الفتن، ولا يُحمد صدقهم وإنّ الصدقَ في ذاتهِ محموداً؛ ولإبراز هذه المعاني استعانَ ابنُ زيدون بالآلياتِ الحجاجية المتمثلة في الضمائر(هم) و(واو الجماعة) و(الكاف في ظنك) التي أسهمتْ في التماسك النصي لهذه الصفات، هذا بالإضافةِ إلى الربط الاستدلالي بحروف الجر (الباء) في (بنميم)، و(بقوم)، و(من) في (منهم)، كما كان لحروف العطف (الواو)، و(الفاء) دور واضح في الربط بين هذه الحجج.

حمل مولاه على تصديقه وصرفه عمّا علق بذهنه من الريبة:

اتجه ابن زيدون إلى حمل مولاه على تصديقه، وصرفهِ عمّا عَلِقَ بذهنه من الريبة في أمره حتى تغيّر عليه مستعيناً في ذلكَ بالآلياتِ الحجاجيّة التي كان من أبرزها القسم بالله الذي يوجب التصديق، واستخدام أدوات النفي (ما، ولا) وهي تُعد من العوامل الحجاجية التي تقوم بوظيفةِ توجيه الرسالة والمتلقي في آنٍ معاً إلى نتيجةٍ واحدة يحقق بها المتكلمُ وظيفة اللغة الحجاجية المتمثلة في إذعان المتلقي، وتسليمه عبر توجيهه بالملفوظ إلى النتيجة[1]، وكان ذلك في قوله:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وليسَ وراء الله للمرء مذهبُ

والله ما غششتُكَ بعد النَصيحة ، ولا انحرفتُ عنك بعد الصّاغية ، ولا نصبتُ لكَ بعد التّشيّع فيك، ولا أزمعتُ بأساً منكَ مع ضمانٍ تكفلت به الثّقةُ عنك ، وعهدٍ أخذهُ حُسنَ الظّنِ عليك ، ففيما عَبثَ الجَفاءَ بأذمّتي ، وعاثَ العقوقَ في مودتي ؟ وتمكّن الضياعُ مِنْ وسائلي ، ولمّا ضاقت مذاهبي ، وأكدتُ مطالبي ، وعلامَ رضيتُ

(١) ينظر حافظ علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط/١، عالم الكتب الحديثة ، إربد الأردن، ٢٠١٠، ص٢٨، وآليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي، ص٧٤.

مِنْ المركبِ بالتعليقِ ؟ بل من الغنيمة بالإياب "[1] ، وقد كانت هذه الحجج دفعاً للطرح الذي يظهر في التوضيح الآتي:

النتيجة ⟵ حمل مولاه عمّا علق بذهنه من الريبة في أمره.

تساءلَ ابن زيدون في طرحه السابق عن سبب الجفاء والعقوق والإقصاء والأسباب التي ضاقت بها مسالكه، ورُدت مطالبه، وجعلتْ مولاه يرضى من العظيم بالحقير، مستنكراً رجوعه من غنيمة أفضال مولاه، وعظيم إنعامه خائباً مخذولاً، يتمنى السلامة من الهلاك بعد الرفاهة والجاه الذي كانَ فيه، متسائلاً كيف يغلبه من كان له غالب، ويفخر عليه من كانَ يعجزُعن مباراته ومجاراته، مستنكراً أن يسيء له من كان يراه أضعف منه قدرةً وأحقر[2] .

ثم جاء ابن زيدون بعددٍ من الحججِ التي تبيّن أنَّه لا يستحق كل هذا مستعيناً بالآليات الحجاجية المختلفة اللغوية والتداوليّة التي بدأهابالقسم إلى جانب أدوات النفي(لا، وما)التي أرادَ بها حمل مولاه على تصديقه، وصرفه عمّا علقَ بذهنه من الريبة في أمره ، هذابالإضافة إلى الربطِ بحرف العطف (الواو)، والربط الاستدلالي لحروف الجر (عن، وعلى، ومع، والباء، واللام)،وإسهام الضمير الكاف في (غششتك)، و(عنك)، و(منك)، و(فيك)، و(لك)، و(عليك) في تماسك هذه الحجج التي تعني " حلفت بالله حلفاً لا حلف أعظم منه، وأقسم به ثانياً أنني ما أضمرت لك في سريرتي غير ما أظهرت من الإخلاص والطاعة، ولا ملت عن ولائي لك بعد ميلي

(١) الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون ص – ٢٦٧.
(٢) ينظر ، أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون ، ص ٢٩٧–٢٩٨.

إليك،...، ولا عاديتك بعد اتباعي لك، وإخلاصي لشخصك ، ولا خفت انقطاع الأمل من عدلك مع ما التَزَمَتْه ثقتي فيك، واستوثق حسن ظني به عليك"[1].

بيان سبب حسد حاسديه لاستعطاف الأمير:

عاد ابن زيدون إلى استعطاف الأمير؛ لاستمالته والتأثير فيه وذلك بعدد من الحجج التي تمثلتْ في بيانِ سبب حسد حاسديه، وذلك بقوله الذي جاء على النحو الآتي[2]:

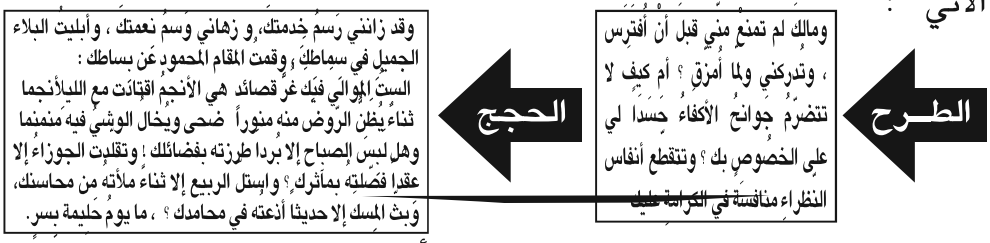

النتيجة ⟵ استعطاف الأمير واستمالته.

بدأ ابن زيدون طرحه السابق بسؤال مولاه قائلاً لأيّ شيءٍ تركتني عرضة لسهام الأعداء، ولم تمنع عنّي أذاهم قبل أن يفترسني غضبك بما دسوه عليّ، وتلحقني قبل أن يمزقني ناب عذابك، بل كيف لا يملأ الغيظ صدور المتمثلين بي، والمناظرين لي، وتكاد تنقطع أنفاسهم في أجوفهم حسداً وشدة رغبة في زوال ما فضلتني به وحبوتني من الشرف والعز عليهم.

جاء ابن زيدون بعد ذلك بسلسلة من الحجج التي ازدوجت فيها أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع مستعيناً بعددٍ من الآليات الحجاجيّة اللغوية والبلاغة والتداولية، التي كان لها أثر في إيصال المعاني التي أرادها.

وقد ظهر ذلك في الربط بحرف العطف الواو، الذي أسهم في الربط بين هذه الحجج التي جاءت متماسكة بوجود الضمير الياء في (زانني، زهاني) وتاء المتكلم في (أبليتُ، قمتُ، الستُ، طرزته، فصّلتهُ، ملأتهُ أذعتُه)، والضميران يعودان إلى ابن

(١) المصدر السابق،ص ٣٧٢- ٢٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٢-٣٠٨.

زيدون، والضمير الكاف الذي يعود على الأمير وذلك في (خِدمتكَ، نِعمتكَ، سِماطِكَ، بِساطك، بفضائلك،بمآثرك، محاسنك، محامدك)، هذا إلى جانب الربط الاستدلالي لحروف الجر(في،عن، مع، من، الباء)، والضمير الهاء في (طرزته، فصّلتهُ، ملأتهُ أذعتُه).

وقد كان لأسلوب القصر، الذي أفاد في حصر الحجاج في جهة حجاجية واحدة، مع الآليات البلاغية، أثرٌ واضح في إبراز المزاوجة بين الإقناع والإمتاع وذلك عن طريق الحجج الآتية:

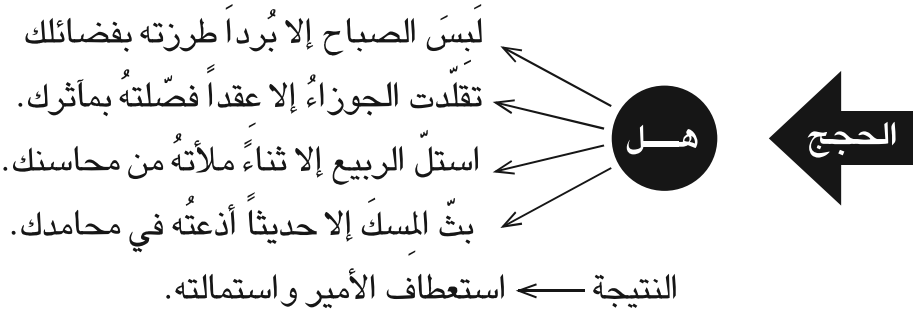

جاءتْ هذه الحجج الرائعة؛ لتبيّن سبب حسد الحاسدين، وقد برزتْ فيها الآليات البلاغية، التي جعلت هذه الحجج أشبه بالمنظوم من المنثور، فقد استعار ابن زيدون للصباح برودا مطرزاً بفضائل مولاه، وللجوزاء قلادة مفصلة من مآثره، وللربيع كتاباً مملْىً من محاسنه، وللمسك حديثاً مذاعاً في محامده، فجاءت هذه الحجج فيها انسجام يأخذ بمجامع القلوب ؛ لسهولتها وعذوبتها واتزان فقراتها[1]؛ وذلك لاستعطاف الأمير استمالته.

وقد أرادَ ابن زيدون من تلك الحجج أن يبيّن لمولاه أنّه لم يحسده الكفء، وينافسه النظير إلا لصدق خدمته له، وأثر نعمته عليه ؛ ولتأكيد ذلك استعان ابن زيدون بالحجاج بالمثل "ما يومُ حَليمة بِسرٍ" وهو مثل يضرب لكل أمر متعالٍ

(١) ينظر الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ٣٠٧-٣٠٨.

مشهور[1]، ومراد ابن زيدون منه بيان أنّ إخلاصه للأمير، وبذل نفسه في خدمته، وابتغاء مرضاته ما كان مخفياً مستوراً، بل كان ظاهراً جلياً كيوم حليمة[2].

استدراك ابن زيدون دفعاً للتوهّم:

بعد أن ساق ابن زيدون الحجَج السابقة بقوله: " وهل لَبِسَ الصباح إلا بُرداً طرزته بفضائلك! وتقلّدت الجوزاءُ إلا عِقداً فصّلتهُ بمآثرك..." استدرك عليها حتى لا يتوهم أحد أنّه اخترع لمولاه خلالاً لم تكن فيه؛ وذلك بعدد من الحجج جاءت في قوله على النحو الآتي[3]:

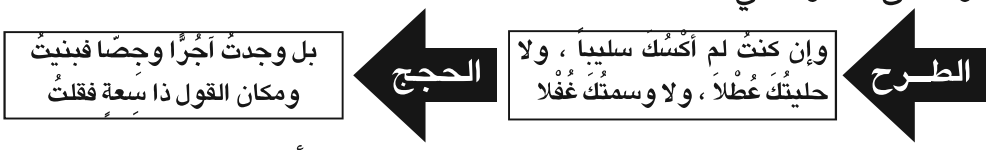

النتيجة ⟵ دفع التوهم لاستمالة الأمير.

بدأَ ابن زيدون طرحه السابق مستدركاً على حججه السابقة، قائلاً إن كنت فيما مضى قلتُ وقلتُ فإنّي لم أكسكَ ثوباً من الثناء أنت مسلوب منه، ولا حليْتك بحلية الكمال وأنت عاطل منها، ولا وسمتك بسمةِ الشرف وأنتَ مهمل منه، ثم جاء بعددٍ من الحجج مستعيناً بالآلياتِ الحجاجية اللغوية والبلاغية والتداولية؛ لدفْعِ التوهمِ.

ح١ ⟵ بل وجدتُ اَجُرًّا وجِصّا فبنيتُ.

هذه الحجة ربطها ابن زيدون مع الطرح السابق بالرابط الحجاجي حرف العطف (بل) الذي يفيد الإضراب؛ ليدفع التوهم الذي ربما يحدث بسبب الحجج التي ذكرها من قبلُ؛ وذلك ببيان أنّه وجد من صفاتِ مولاه السامية أداةً بنى بها مدائحه فيه ولم يمدحه بما ليس فيه ؛ ولإيصال هذا المعنى استعان بالاستعارة التصريحية

(١) ينظر،المصدر السابق، ص ٣٠٨.
(٢) ينظر المصدر نفسه، ص ٣٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٩-٣١٢.

عندما شبَّه صفات مولاه السامية بالطين اللين والحصى الذي يستخدم في البناء، وهي من الآليات الحجاجية البلاغية التي تجتمع فيها أساليب الإمتاع بالإقناع، كما استعانَ بالربط بحرفي العطف (الواو، والفاء)، إلى جانب الضمير المتصل (التاء) الذي أسهم في تماسك هذه الحجة.

ح٢ ⟵ ومكانَ القولِ ذا سعة فقلتُ.

ربطَ ابن زيدون هذه الحجةَ بمَا قَبْلها بحرف العطف (الواو) وَهو من الآليات الحجاجية التداولية؛ استمراراً في دفع التوهم؛ وذلك بقوله أنّه وجدَ مكاناً من مجال القول فسيحاً فأطلق لسانه فقال ما قالَ مدفوعاً بحُسن أثر مولاهُ فيه، ولإيصال هذا المعنى استعانَ ابنُ زيدون بالآليات الحجاجية المتمثلة في حرف العطف (الفاء) الذي أفاد الترتيب مع التعقب، بجانب ضمير المتكلم التاء في (قلتُ) الذي ظهرَ دوره في تماسك هذه الحجة.

إظهَارُ الثقة في قدرة مَولاهُ على تَفْريج كُربَته بالعفو عنه :

اتَّجهَ ابنُ زَيْدون إلى بَيَان الثقة في مَولاهُ بتَفْريج كُربَته والعفو عنه، بإظْهَار قُدْرة مَولاهُ عَلى إزاحة شَكيّته، وتَفْريج كُربَته، مع الإشارة إلى علو نفسه؛ وذلك لاستعطاف مولاه واستمالته بطَرْحه الذي دَعَمَه بعدد من الحجج: "وحاشا لله أن أُعدُّ من العاملة النّاصبة ، وأكون كالذّبالة المنصوبة تُضيءُ للنّاس وهي تحترق ، فلكَ المَثَلُ الأعْلَى ، وهُوَ بِي وبكَ أولى"[(١)] .

الطـرح	الحجج
وحاشا لله أن أُعدُّ من العاملة النّاصبة ، وأكون كالذّبالة المنصوبة تُضيءُ للنّاس وهي تحترق	فلكَ المَثَلُ الأعْلَى ، وهُوَ بِي وبكَ أولى

النتيجة ⟵ إظهار ثقته في عفو الأمير واستمالته.

استعانَ ابنُ زيدون في طرحه السابق بلمحة بيانية وظّفَ فيها من الآليات البلاغية تشبيه التمثيل الذي جاءَ في استعاذته أنْ يُعد ممن ينصب في خدمة مولاه

(١) الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ٣١٠- ٣١٥.

دائباً ولا أجر له عنده إلا الشقاء والعذاب، كالذين يعملون وينصبون في الدنيا ولا جزاء لهم في الآخرة إلا النَّار، أو كفتيلة المسرجة مائلة وقوفاً تضئ المكان وهي تحترق؛ وذلك لإظهار ثقته في قدرة مَولاهُ على تَفْريج كُربَته بالعفو عنه؛ ولتأكيد ذلكَ جاءنا بالحجة الآتية مستعيناً بالآليات الحجاجية المختلفة:

ح١ ← فلكَ المَثَلُ الأعْلَى.

بدأتْ هذه الحجة بالرابط الحجاجي حرف العطف (الفاء) الذي يفيد الترتيب مع التعقيب، وهو من الآليات الحجاجية التداولية، ثم استعانَ بالربط الاستدلالي بحرف الجر(الباء)، والضمير الكاف في (لك) الذي يعود إلى الأمير، وقد أسهمَ هذا الضمير في تماسك هذه الحجة.

وتوجيه هذه الحجة إلى الأمير فيه غلو وإفراط؛ وذلك لأنَّ توجيه مثل هذا القول إلى الله عزَّ وجل أولى؛ لأنه لا يليق إلا به؛ وابن زيدون قد أرادَبهذه الحجة أن يثبت لمولاه ثقته فيه، فوصفه بالصفات العليا من الكمال والقدرة على تفريج كربته، وإزاحة شكيته[1]؛ لاستعطافه واستمالته.

ح٢ ← وهُوَ بِي وبِكَ أولَى.

جاء ابن زيدون بهذه الحجة التي ربطها مع الحجة السابقة بالرابط الحجاجي حرف العطف الواو، والضمير المنفصل (هو) الذي يعود إلى قوله السابق؛ ليبّن للأمير أنَّ الصفات العليا التي وصفه بها مشتركة بينَهم، ولكن الأمير للشدائد الكبرى، وهو لمادونِها، فأنتَ أيها الأمير أولى بمنةِ العفو والصفح، وأنا أولى بالشكر عليها.

وهذه الحجة فيها طابع تدريجيّ، فبعد أن أثبتَ للأمير الصفات العليا في القدرة على تفريج الكروب، بإزاحة شكيته، عادَ وقالَ للأمير أنتَ أولى بمنةِ العفو

(١) ينظر، أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ٣١٥.

والصفح، وأنا أولى بالشكر عليها؛ ولذا ففي ظنّي هذه الحجة جاءت مع الحجة السابقة في سلم حجاجيّ، الذي هو نظامٌ من الحجج قائم على معيار التفاوت في درجات القوة، وعلى سلميّة ممكنة بين الحجة الأكثر قوة، والحجة الأكثر ضعفاً[1]، وهو من الآليات الحجاجيّة التداولية التي استعان بها ابن زيدون بجانب الربط بحرف العطف (الواو)، والمعنى الاستدلالي في حرف الجر (الباء)، والضمير(الياء) في (بي) الذي يعود إلى ابن زيدون، و (الكاف) في (بك) الذي يعود إلى الأمير.

إلقاء اللوم على نفسه:

رجع ابن زيدون إلى استعطاف مولاه واستمالته؛ مستعيناً بعدد من الحجج التي أظهرت إلقاء اللوم على نفسه وذلك في قوله: وَلَعَمْرِي مَا جَهِلْتُ أَنّ صَرِيحَ الرأيِّ أن أَتَحولَ إذا بَلَغَتْنِي الشَّمسُ وَنَبَا بِيَ المنزلُ وأصفح عن المطامع التي تُقَطِّعُ أَعناقَ الرجالِ فلا أَسْتَوطِئُ العجز ولا أميلُ إلى الغُرور، ومن الأمثال المضروبة خَامِرِي أُمَّ عَامِر .

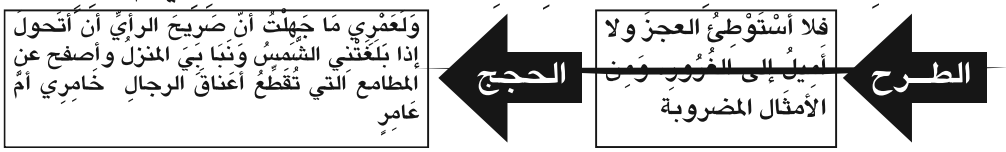

النتيجة ⟵ إلقاء اللوم على نفسه؛ لاستعطاف الأمير واستمالة.

قام ابن زيدون في طرحه السابق بإلقاء اللوم على نفسه بأنَّه كانَ عليه أن لا يستلين فراش العجز عن كسب المعالي، ولا يميل إلى غرور النفس وأمانيها الباطلة عن الأخذ بالحزم واليقظة، ولا يغتر بزخرف القول، وغش المُخاتل؛لأنَّهما أصل الشر وداعية النكال[2]، ثم جاء بالحجج التي تدعم هذا اللوم مستعيناً بالآليات الحجاجيّة المختلفة:

ح١، ح٢ ⟵ لَعَمْرِي مَا جَهِلْتُ أَنّ صَرِيحَ الرأيِّ أَن أَتَحولَ إذا بَلَغَتْنِي الشَّمسُ وَنَبَا بِيَ المنزلُ وأصفح عن المطامع التي تُقَطِّعُ أَعناقَ الرجالِ خَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ .

(١) اللسانية ، وهران،٢٠٠٩، ص٤٣٨.

(٢) ينظر الدر المحزون في شرح رسائل ابن زيدون، ص – ينظر أحمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى (عليه السلام)، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة ١٨–١٩.

بدأ ابن زيدون هذه الحجج بالقسم ثمَّ استعانَ بأداة النفي (ما) التي تُعد من آليات الحجاج اللُغوية التي" تقوم بوظيفة توجيه الرسالة والمتلقي في آنٍ معاً إلى نتيجة واحدة يحقق بها المتكلم وظيفة اللغة الحجاجية المتمثلة في إذعان المتلقي، وتسليمه عبر توجيهه بالملفوظ إلى النتيجة"[١]؛ ولذا بعد أن أقسم ابن زيدون بحياته جاءَ بأداة النفي (ما) لنفي جهله أنَّ الرأي الصريح اختيار النافع من الضار، وأنَّ عقبى الطمع الهلاك ؛ وبهذا وجه الطرح السابق إلى إلقاء اللوم على نفسه؛ لاستعطاف الأمير واستمالته،وقد أسهمَ ضمير المتكلم (التاء) في (جهلت)، و(الياء) في (بلغتني) و(بي) في تماسك هذه الحجج، ثمَّ جاء بالمثل "خَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ" لتقوية هذه الحجج؛ لأنّه لولا اغترار نفسه واستسلامها لقول الصائد بما زيَّنَ لها ماقيدتْ إلى الأسر والعذاب بالسلاسل والأغلال[٢]، "فالمثل يلعب دوراً فعّالاً في الحجاج، فبواسطته يتم التأكيد والإقناع على قضية ما"[٣].

إظهار التمسك بوطنه ومولاه وإجلاله والاعتماد عليه:

بيّنَ ابنُ زيدون أنّهُ عَلى الرغم من معرفته بكثرة الصعاب التي يلاقيها كُلُ مَن يفارق وَطَنه، فهو يمتلك ما يمكنه من ذلك، ومع هذا لم يفْعَلْ، بل أظهرَ شدة تَمسكه بوطنه ومولاه واعتماده عليه، مع مقدرته على فراقهما؛ وذلك بقصد التأثير في مولاه؛ لاستمالته، وإقناعه، وقد استعان بعدد من الحجج التي جاءتْ تحفل بالآليات الحجاجية المختلفة التي جاءت في قوله على النحو الآتي[٤]:

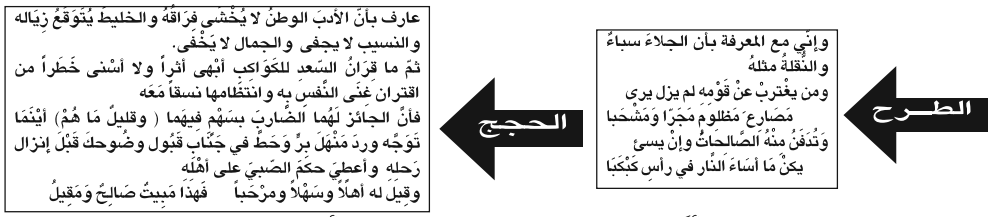

(١) آليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي،ص٧٤.

(٢) ينظر الدر المخزون في شر ح رسالة ابن زيدون، ص٣٢٠.

(٣) نعيمة يعمران، الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، الجزائر،٢٠١٢،ص٣٤.

(٤) الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص٣٢٠-٣٥٧.

ذكر ابنُ زيدون في الطرح السابق أنّه مع علمه بأنّ الخروج من الوطن أسرٌ له، والانتقال منه نكالٌ، والتغرّب ذلٌّ، يرى المرء ظلم المظلومين يُجرَّونَ جرَّاً، ويُسحبون على وجوههم سحباً، والغريب تُدفن أعماله الصالحة، وتظهر سيئاته المطوية كظهور النار في رأس جبل كبكب، وهو جبل بعرفات خلف الإمام[1]، ومع هذا كله فهو لا يخشى الغربة، ولا يبالي بأهوالها، ثم جاء بالحجج التي تؤكد ذلك مستعيناً بالآليات الحجاجية المختلفة:

ح١ ← عارف بأنَ الأدبَ الوطنُ لا يُخْشَى فِرَاقُهُ والخليطَ يُتَوَقَعُ زِيَاله والنسيب لا يجفى والجمال لا يَخْفى

جاءَ ابن زيدون بهذه الحجة لبيّن أنّ الأدب هو وطنه الحقيقي الذي يلازمه، والنسيب الذي لا يجفوه، والخليط الذي لا يفارقه، والجمال الذي يزينه؛ ولذلك لا يخشى الغربة، وقد استعان بعدد من الآليات الحجاجية، منها الربط الاستدلالي لحرف الجر الباء في (بأنّ)، هذا إلى جانب المعاني اللغوية المتضمنة في حرف النفي (لا) الذي أراد به حمل مولاه إلى أنَّ أدبه أشدَّ ملازمة له من وطنه الذي نشأ فيه، هذا بالإضافة إلى الربط بحرف العطف (الواو)، وإسهام الضمير (الهاء) في (فِرَاقُهُ)، و(زِيَاله) في تماسك هذه الحجة.

ح٢ ← ثمّ ما قِرَانُ السّعد للكوَاكب أبْهى أثراً ولا أسْنى خَطَراً من اقتران غِنَى النَّفسَ به وانتظامها نسقاً مَعَه

جاءَ ابنُ زيدون بهذه الحجة؛ ليبيّن أنّه مع أدبه غنيّ النفس، ومَنْ كانَ كَذلك فَهو لايخشى الغربة؛ وقد جاءتْ هذه الحجة دعماً وتقويةً للحجة السابقة؛ ولذا فقد ربطها مع الحجة السابقة بالرابط الحجاجي حرف العطف (ثمَّ)، هذا إلى جانب إسهام الضمير (الهاء) في (به) و (معه) الذي يعود إلى الأدب في تماسك هذه الحجة.

ومن الآليات اللغوية التي استعان بها في تقْوية هذه الحجة حروف النفي (ما) و(لا) مع (أفعال) التفضيل (أبْهى) و(أسْنَى)، بجانب الربط بحرف العطف

(١) ينظر ، المصدر السابق ، ص٣٣١.

(الواو)، والمعنى الاستدلالي في حروف الجر (من) و(الباء) و(مع) التي جاء بها ليبيّن أنَّ اقتران الأدب بغنى النفس أحسن وأشرف من السعد للكواكب.

ح٣ ← فأنَ الجائزَ لهُما الضَّاربَ بسَهْمٍ فيهَما (وقليلٌ مَا هُمْ) أيْنَمَا توَجّه وردَ مَنْهَلَ برٍّ وَحَطَّ في جَنَابِ قَبُول وضُوحكً قَبْلَ إنزال رَحله وأعطيَ حكمَ الصّبيَ على أهْله وقيلَ له أهلاً وسَهْلاً ومرْحَباً فهَذَا مَبيتٌ صَالحٌ وَمَقيل

تُعدّ هذه الحجة دعماً للحجج السابقة، وقد أرادَ ابن زيدون بها تأكيد أنَّه لا يخشى الغربة؛ لأنّه يمتلك الأدب المقترن بغنى النفس؛ ولذلك "متى أمَّ بلداً، أوقصد مكاناً، فنزل به نالَ من أهله خيراً و فضلاً فرحبوا به ، وأظهروا البشرَ والسرور له قبلَ أن يحطَّ رحالهُ، وحكّموه في برّهم ومعروفهم تحكّم الصبيّ على أهْله"[1].

وقد استعان ابن زيدون في هذا الحجة بعدد من الآليات الحجاجية المختلفة التي بدأها بالرابط الحجاجي حرف العطف (الفاء) الذي يدل على الترتيب مع التعقيب، وقد أسهم الضمير(الهاء) في (لهما) و(فيهما) العائد إلى الأدب وغنى النفس في تماسك وربط هذه الحجج، هذا إلى جانب الربط بحرف العطف الواو، والمعنى الاستدلالي لحروف الجر(اللام، والباء، وفي، وعلى).

وقد جاءَ ابنُ زيدون بهذه الحجج التي أكَّدَ بِهَا أنَّه لا يَخْشَى الغربة وفراق الوطن؛ ليبيِّن بعدها شدَّة رغبته في التمسك بوطنه ومولاه ؛ وتأكيداً لذلك ساقَ لنا عدداً من الحجج التي استعانَ فيها بعدد من الآليات الحجاجية المختلفة.

١ حجج التمسك بوطنه ← غيرَ أنَّ الوطن مَحْبُوبٌ والمنْشأ مألوفٌ واللبيبَ يَحنُ إلى وَطنه حنينَ النّجيب إلى عَطنه والكريم لا يجفو أرضاً فيها قَوَابلهُ وَلا يَنسَى بَلَداً فَيها مَرَاضعُهُ، قَال الأول:
أحبُ بلادَ الله ما بَينَ مَنْعَج إليَّ وَسَلمَى أن يصُوبَ سَحَابُهَا
بلادٌ بها حل الشبابُ تمائمُي وأوَّل أرض مسَّ جلدي تُرابُها

النتيجة ← التمسك والحنين إلى وطنه.

بدأ ابن زيدون هذه الحجج بأداة الاستثناء (غير)؛ لتوجيه الحجة إلى النتيجة؛ وهي بيانُ تمسّكه بوَطَنه، على الرغم من مقدرته على فراقه، وَقد أكَّدَ ذلكَ

(١) الدر المخزون في شر ح رسالة ابن زيدون، ص٣٤٠.

بعددٍ من الحجج التي ربطها بالرابطِ الحجاجي حرف العطف (الواو)، هذا بالإضافةِ إلى المعني الاستدلالي في حرف الجر(إلى)، مع الآليات البلاغية المتمثلة في تشبيهِ حنين العاقل إلى بلده بِحنينِ الفحلِ الكريم إلى مَبركه، هذا فضْلاً عن المعَاني اللغوية المتضمنة في حرفِ النفي (لا) التي أرادَ بِهَا بيانَ انّ الكريمَ لا يجفو بلداً وُلدَ فيه، وارتضعَ من ألبانه.

٢ حجج التمسك بمولاه الأمير

هذا إلى مُغالاتي بعقد جوَارك وَمُنَافَستي بلحظةٍ من قربك واعتقادي أنّ الطَّمَعَ في غيْرك طَبَعٌ والغناء مَن سواكَ عنا وَالبَدَلَ أعورٌ والعوضَ لغا
وإذا نظرتُ إلى أميري زادَنِي ضناً به نَظَري إلى الأمَرَاء
كلُّ الصَّيْدِ في جوف الفرَا وفي كل شَجَرٍ نارٌ وَاستمجَد المرْخُ والعَفَار.

النتيجة ← التمسك بمولاه الأمير؛ لاستعطافه واستمالته.

إضافة إلى الحجج السابقة التي أكدَّ فيها ابن زيدون تمسّكه بوطنه، جاء بهذهِ الحجج؛ لتأكيد تمسّكه بمولاه الأمير أيضاً؛ ولذا فقد بدأها باسم الإشارة (هذا)؛ لربطها بما سبق؛ ليقولَ لمولاه إنَّ ما قلته فيك آنفاً يضاف إليه "مبالغتي بتقدير عقد جوارك، ومنافستي بنظرة من قربك، واعتقادي أنَّ الأملَ الذي آمله من غيركَ دلس ورجس، والنفع الذي التمسه من سواك ذلٌ وخضوع، والبدل الذي استبدله منك سوأة وقبحٌ، والعوض الذي اعتاضه عنك خسيسٌ محتقر"(١).

ونلاحظُ أنَّ هذه الحجج جاءتْ في قالبِ السلمِ الحِجَاجِي الذي يُعد من الآلياتِ الحجاجيةِ التداولية، وقد ربطَ بينها بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)، هذا بالإضافة إلى المعني الاستدلالي في حروف الجر(إلى، والباء، ومن، وعن)، مع إسهام الضمائر(الياء) في(مغالاتي) و(منافستي) و(اعتقادي) ، و(الكاف) في (جوارك) و(قربك) و(غيرك) و(سواك)، في تماسك هذه الحجج.

ثمَّ استمرَ ابنُ زيدون في إجلالِه لمولاه وتفضيله له وتمسّكه بهِ وطلب العفو منه مقدماً الحجج لذلكَ:

(١) الدر المخزون في شر ح رسالة ابن زيدون، ص ٣٤٧.

ح١ ⟵ وإذا نظرتُ إلى أميري زادَني ضناً بهِ نَظَري إلى الأَمرَاءِ

هذه الحجة تؤكد تفضيله لمولاه الأمير، فهو لا يعدل به أحداً، ولا يؤثر عليه نظيراً من الأمراء، وقد استعان فيها بعددٍ من الآليات الحجاجية المختلفة التي بدأها بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)؛ لربط هذه الحجة بالسابقة، ثمَّ جاءَ بأداة الشرطِ غير الجازمة (إذا) للربط بين قضيتين عند مخاطبته للأمير بقصد إظهار تفضيله له وتمسّكه به؛ وذلك للتأثير فيه، فقد ربط بين نظره إلى أميره وتفضيله عمّا سواه، وقد كانَ للضمير (التاء) في (نظرت)، و(الياء) في (أميري، وزادني، ونظري)، و(الهاء) في (به) أثرٌ في تماسك هذه الحجة، هذا إلى جانب المعني الاستدلالي في حروف الجر (إلى، والباء).

ح٢ ⟵ كلُّ الصَّيْدِ في جوف الفَرَا وفي كلِّ شَجَرٍ نارٌ واستمجَد المَرْخُ والعَفَار.

ساقَ ابنُ زيدون هذه الحجة، التي تُعد من بَاب المبالغة في وصف ممدوحهِ بالحذق في الأمور وجودة الرأي؛ وذلك بغرضِ تفضيل مولاه الأمير على سائر الأمراء بقصد استمالته والتأثير فيه، وقد استعان فيها بالمَثَلَين " وحاصلهما أنَّ مولاه جَمعَ في شخصهِ كلَّ مزايا الملوك وإن شركوه في بعضها كما جمع الصائد كل الصيدِ في جوف الفرا وإن شاركه الصيادون في الصيْدِ وأنَّه أمجد منهم عطاءً كالمرخ والعفار في الورى وإن كانت النار تُوجد في جميع الشجر، يريد أنّه لم يجتمع في سواه من الملوك ما اجتمع فيه من جودة الرأي والحذق بالأمور والسخاء"[١].

ح٣ ⟵ أعيذُكَ وَنْفسي مِنْ أنْ أشِيمَ خُلُّباً واستمطرَ جَهاماً وأُكرِمَ غيرَ مُكْرِم.

جاء ابن زيدون بهذه الحجة بعد استفهمَ عمّا دعا مولاه إلى التنازل عنه وذلك في طرحه السابق الذي جاءَ في قوله: "فما هذه البراءة ممَّنْ يَتَولَّاكَ والميل عَمَّنْ لا يميل عَنْكَ وهلّا كان هَوَاك فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ ورضاك فيمن رِضَاهُ لَكَ"[٢].

(١) الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ٣٥٢.
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٢.

وهذه الحجة من بابِ الاستمرارِ في إجلالِه لمولاه وتفضيله له؛ لاستعطافه واستمالته؛ وذلك بنفي ما لا يحسن وقوعه من أميرٍ مثله قادر على الغفوِ عنهُ كرماً وفضلاً، وقد أعاذ نفسه من أن يراه بهذه العين.

وقد جاءتْ هذه الحجةُ حافلةً بالآلياتِ الحجاجيةِ المختلفة، أبرزها المثل "أشِيم خُلَّباً واستمطرَ جَهاماً"، وهو مثلٌ يضْربُ لمن يَعدُ ولا يفي، وكأَنَّ ابن جهور قد وعده بالعفوِ، هذا إلى جانب الربط الحجاجي بحرف العطف (الواو)، والمعني الاستدلالي في حروف الجر(من)، وإسهام الضمائر(الكاف) في (أعيذك) و(الياء) في(نفسي) في تماسك هذه الحجة.

ح٤ ← وأشكو شكوى الجريح إلى العقَبَانِ والرَّخَم.

هذه الحجة امتدادٌ للحجةِ السابقة، وهي أبْلغ في الاستعادة مما سبق؛ لأنَّ العقاب من جوارح الطير، والرَّخمُ من بغاثها (شرارها) فإذا رأتْ جريحاً عاجزاً عن الحركة اجتمعتْ عليه، لتأكل لحمَه، فكأن الشكوى إليها شكوى لمن لا يرحم [(١)]، فهو بذلك ينفي عن أميره ما لا يحسن وقوعه من أميرٍ مثله؛وذلك إجلالاً لمولاه وتفضيلاً له.

وقد استعانَ ابن زيدون في الحجة بعددٍ من الآلياتِ الحجاجية، التي بدأها بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو)؛ لأنَّها امتدادٌ للحجة السابقة، ثمَّ الاستعارة المكنية، وهي من الآليات البلاغية؛ وذلك بتشبيه العقابِ والرخمِ بالإنسان الذي يُشكى إليه، وحذف المشبه به، هذا بالإضافة إلى المعنى الاستدلالي في حرف الجر(إلى).

استجلاب رضى مولاه والعفو عنه:

استمرَ ابن زيدون في خطابه نحو استجلاب رضى الأمير والعفو عنه بعدد من الحجج وذلك في قوله:" فما أبْسَسْتُ لك وحَرَّكْتُ الحوَارَ إلّا لتَحنَّ وَنَبَّهْتُكَ إلّاً لأنام وَسَرَيْتُ إليْكَ إلا لأحمدَ السُّرى لَدَيْكَ، وأنَّكَ إنْ سنَّيْتَ عَقدَ أمْرِي تَيَسَّرَ وَمَتَى

(١) المصدر نفسه، ص ٣٥٤.

أَعْذَرْتَ في فكِّ أسْري لم يَتَعَذَّرَ وَعلمُكَ مُحيطٌ بأنّ المعرُوفَ ثَمرةُ النِّعمَةِ والشَّفَاعَةَ زَكَاة المَروءَةِ وَفَضْلَ الجاه تَعُودُ به صَدَقةً.

وإذا امْرُؤ أهدى إليْكَ صَنيعَةً من جَاهه فكأنَّهَا من مَاله

لعلّي أُلْقِي العَصَا بِذَرَاكَ وَتستَقرُ بِيَ النَّوَى في ظِلّكَ وأَسْتَأنفُ التأدُّب بأدبِكَ والاحتمالَ على مَذْهَبِكَ

فلالا أُوجدُ للحَاسد مَجَالَ لَحْظَة ولا أدعُ للقادح مساغَ لفظة واللهُ مُيِّسرُكَ من اطِّلابي بهذه الطَّلبة وإشكائي من هذه الشَّكوى بصنيعة تُصيبُ منها مَكَانَ المَصْنع ونَسْتَوْدعُها أَحْفظ مستودعٍ حَسْبَما أنت خليق له وأنا منك حريٌّ به وَذلكَ بَيدهَ وهيّنٌ عَلَيْه[1].

الحجـــج (١)

فما أبْسَسْتُ لك وحَرَّكْتُ الحوَارَ إلّا لتَحِنَّ وَنَبَّهْتُكَ إلّا لأنام وَسَرَيْتُ إليْكَ إلا لأحَمدَ السُّرى لَدَيْكَ

النتيجة ⟵ رضى مولاه الأمير.

جاءَابنُ زيدون بهذه الحجج مرتبطةً مَع بَعْضها، وقد بيَّنَ فيها لمولاه الأَمير أنَّه لمْ يتَضرَّعْ إليه، ويُدْلي ببسط أعْذاره؛ إلّا استجلاباً لرضَاه، وَطلباً للعفو عَنهُ؛ ولتحقيق هذا القصد استعانَ ابنُ زيدون بعدد من الآليات الحجاجية أَبْرَزهَا أسلوب القصر بـ(ما) و(إلا) الذي انتقل بالتعبير إلى الطابع الحجاجي؛ وذلك بتوجيه الخطاب نحو نتيجة محددة، وهي استجلاب رِضى الأمير، وقد كانَ للرابط الحجاجي حرف العطف (الواو) أَثَرُه في ترابط هذه الحجج، هذا فضْلاً عنْ إسهام الضمائر (التاء) في (أبْسستُ، وحركتُ، وسيرْتُ) و (التاء والكاف) في (بَهْتُكَ)، و(الكاف) في (لك، وإليْكَ، ولَدَيْكَ) في تماسك هذه الحجج، هذا جانب إلى المعنى الاستدلالي في حرف الجر(إلى، واللام).

الحجـــج (٢)

وأنَّك إنْ سنَّيْتَ عَقدَ أمْري تَيَسَّرَ ، وَمَتَى أعْذَرْتَ في فكِّ أسْري لم يَتَعَذَّرْ.

(١) الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون ، ص ٣٥٦.

ساقَ ابنُ زيدون هذه الحجج ؛ لبيان مقدرة مولاه على العفوِ عنه؛ لأنّه متى أرادَ أمراً نفَّذه؛ وقد جاء بهذه الحجج مستعيناً بعددٍ من الآليات الحجاجيّة، موجهاً الخطاب إلى مولاه الأمير، بدأها بالرابط الحجاجي حرف العطف (الواو) و (أنَّ مع كاف الخطاب). وقد كان لأسلوبِ الشرط دورٌ بارزٌ في هذه الحجج؛ وذلك في الربط بينَ قضيتين عند مخاطبته للأمير بقصد استجلاب رضاه والعفو عنه، هذا بالإضافةَ إلى إسهام الضمير(تاء المُخَاطب) في (سنَّيْتَ) و(أعْذّرْتَ) في تماسك هذه الحجج.

الحجـــــج (٣) فلا لا أُوجِدُ لِلحَاسِدِ مَجَالَ لَحْظَةٍ ولا أدعُ للقادحِ مساغَ لفظةٍ

جاءَ ابنُ زيدون بهذه الحجج بعد طرحه في قولهِ السابق الذي بيَّنَ فيهِ رجاءه ومناه الإقامة بفناء مولاه الأمير، واستئناف التأدّب بأدبه؛ وذلك بحجة أن لا يجد الحاسدُ في مجال حسده لحظة يحسده فيها، ولا القادح في مساغ قدحه لفظة يتقول بها عليه[1]، وقد استعان في هذه الحجج بعددٍ من الآليات الحجاجية أبرزها الربط بحرف العطف (الفاء) الذي يدل على الترتيب مع التعقيب، و المعاني اللغوية المتضمنة في حرف النفي (لا) الذي أراد به حمل مولاه إلى تنفيذ ما تمناه، هذا بالإضافة إلى المعنى الاستدلالي في حرف الجر(اللام).

(١) ينظر، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون ، ص ٣٧١.

خاتمـــة

بعد الوقوف على هذه الرسالة، واتباع المنهج الوصفي التحليلي بهدف التعرف على تضافر الآليات الحجاجية التي استعان بها ابن زدون في تحقيق مبتغاه، توصلنا إلى النتائج الآتية:

١- إنَّ الحجاج في هذه الرسالة جاءَ بمعانٍ مختلفة كلها سعتْ إلى استعطاف الأمير، والتأثير فيه وإقناعه؛ وذلك لإطلاق سراحه من السجنِ الذي أوْدعه فيه نتيجةً لإحدى الدسائس.

٢- ازدوجت في معظم الحجج التي أوردها ابن زيدون في رسالته أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع مع الاستعانة بالآلياتِ الحجاجيّة المختلفة، بلاغة (تشبيه، استعارة، مجاز، ...) ولغوية تداولية (ضمائر، حروف جر، روابط حجاجية...).

٣- تنوّعتْ الروابط الحجاجيّة في الرسالة الجدية، وما هذا إلا للدور الذي تقوم به هذه الروابط في بناء الخطاب الحجاجي وانسجامه لتحقيق القصد.

٤- أسهمت الضمائر بأنواعها المختلفة إسْهاماً واضحاً في تماسك الحجج التي وردت في الرسالة.

٥- كانَ لأسلوب الشرط دورٌ واضحٌ بوصفه ركيزة الحجاج والأدلة العقلية في الخطاب؛ وذلك في الربط بين قضيتين ليتحقق بذلك الإقناع.

٦- لَعِبَ أسلوبُ القصرِ في الرسالةِ عن طريق النفي وأداة الاستثناء (إلا) دوراً واضحاً في تقييد الحجة بالنتيجة.

أوصي الباحثين بالإفادة من رسالة ابن زيدون الجديّة عند دراسة الموضوعات ذات الصلة بالحجاج وآلياته.

المصادر والمراجع

١- أحمد عرابي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى (عليه السلام)، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة ١٨-١٩

٢- أرسطو طاليس، الخطابة، ترجمة إبراهيم سلامة،ط/٢ ،مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة،١٩٥٣.

٣- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق. إحسان عباس،الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ط/ ١، ١٩٨١.

٤- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر،البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون،ط/٢ ،دار الجيل بيروت،د/ت.

٥- حافظ علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط/١، عالم الكتب الحديثة ، إربد الأردن،٢٠١٠.

٦- الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، تحقيق راجي الأسمر، دارالكتاب العربي، بيروت،ط/ ١٩٩٨.

٧- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة) بنيته وأساليبه،ط/١ ،عالم الكتب الحديث، الأردن،٢٠٠٧.

٨- السلمي عبدالرحمن بن رجاء الله الجامعي، بحث منشور بعنوان خطاب المحاور الحجاجي في التراث الأدبي، مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد١٧٩.

٩- الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق/ محمد المنشاوي، دار الفضيلة القاهرة،د.ت.

١٠- الضاوية مخلوفي، آليات الحجاج في كتاب وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي،رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح،٢٠١٦.

١١- طه عبدالرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط/٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،٢٠٠٦.
١٢- طه عبدالرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط/٤، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،د.ت.
١٣- عبدالحليم حسين الهروط، ومحمود عبدالرحيم صالح، تحقيق الرسالة الجدية لابن زيدون، المجلة الأردنية في اللغة العربية، المجلد٣،العدد٣،٢٠٠٧.
١٤- عزيز لدية، أساليب الخطاب والإقناع في نثر ابن زيدون، رسالة ماجستير، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا،٢٠١٢.
١٥- عبدالعزيز عتيق علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،١٩٨٤.
١٦- عليم، أبوبكر محمد، الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ط/١،مطبعة الشروق، ١٣٤٥-١٩٢٦.
١٧- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، ط/٢، دار الفكر بيروت،١٩٧٩.
١٨- فطيمة الزهرة بابا عربي، حجاجية الصورة الشعرية في شعر أحمد عبدالكريم، رسالة ماجستير منشورة، جامعة قاصدي مرباح، كلية الآداب واللغات، ٢٠١٧.
١٩- ابن منظور الأفريقي، محمد بن مكرم، لسان العرب،ط٣،دار صادر بيروت،٢٠١٤،ج/٢،ص/٢٢٦،والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة،ط/١ مكتبة الشروق الدولية، مصر،٢٠٠٤.
٢٠- نعيمة يعمران، الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، الجزائر،٢٠١٢.
٢١- ابن هشام الأنصاري ، جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، تحقيق مازن المبارك وآخرون،ط/١ ،بدون تاريخ.